الحداثة في الأدب والفن عند د. عبدالغفار مكاوي
(في كتابه ثورة الشعر الحديث)

بقلم: د. آيات ريان(*)

قبل الحديث عن الحداثة في الأدب والفن عند د./ عبدالغفار مكاوي نشير أولا إلى صلته الحميمة بفن الشعر، كما نوه لذلك في أول سطر من كتابه «ثورة الشعر الحديث» وحلمه منذ طفولته بأن يكتب الشعر واستمراره حتى مطلع شبابه الأول في محاولاته الكتابة حتى زاحم هذا الاهتمام محاولات في كتابة القصة والمسرحية ثم الطموح الأكاديمي.. والغرق في المراجع الفلسفية.

وهكذا فقد د./ مكاوي الشاعر في نفسه، ولكنه لم يفقد أبدا حبه للشعر والشعراء وإن اختلفت الوسيلة.. فقد اتجه إلى ترجمة الشعر ودراسته وتقديمه للقراء مثل أشعار سافو اليونانية، ولاوتسي الصيني، وبرشت الألماني وغيرهم.

ثم جاء هذا المؤلف الكبير «ثورة الشعر الحديث» الصادر عام ١٩٧٣ والذي أراد به أن يكون مدخلًا لقراءة وفهم الشعر الحديث (منذ منتصف القرن ١٩ حتى منتصف القرن العشرين) حيث أراد لجمهور القراء أن يعرف هذا الشعر الغربي كما يعرف غيره من فروع العلم أو الفنون الحديثة من (مسرح ورواية وموسيقى وفنون تشكيلية) وذلك حتى يمكن لهذا الجمهور أن يعاصر العالم الذي نعيش فيه ويعرف مكاننا داخله ودورنا فيه.. هذا الهدف إذن كما يراه د./ مكاوي ويقول في ذلك (إننا لن نضيف إلى هذا العالم المعاصر شيئا حتى نفهمه أولا ونعرفه حق المعرفة.. كما علينا أن نحذر ذلك الشعار الرخيص السخيف الذي يردده كثير من الناس عن «عقدة الخواجة» أو «الغزو الفكري» محاولين تبرير الكسل والتخلف والجمود).

(*) باحثة في فلسفة الفن والموسيقى.

obeikandi.com

الحداثة والشعر الحديث:

عندما وضع د./ مكاوي عنوان كتابه المذكور رأى أن كلمة الحداثة تحتاج إلى توضيح فأشار إلى أن العصر الحديث - بالمعنى الواسع للكلمة - قد بدأ مع بداية الثورة الصناعية باكتشاف القوى البخارية والمائية ومحاولة الإنسان الحديث الدائبة للانتصار على الطبيعة وكشف أسرارها حتى وصل إلى اكتشاف الطاقة الذرية... وصاحب ذلك تغير نظرة الإنسان إلى الله والطبيعة كما تغيرت نظرته إلى نفسه و إلى المجتمع البشري وذلك في القرنين الأخيرين (التاسع عشر والعشرين) وبالضرورة انعكست تلك التغيرات الهائلة على إنتاجه الفني بوجه عام كما ظهرت في تعبيره الشعري فيما يمكن تسميته (بثورة الشعر الحديث).

ومن الحداثة ينتقل عبدالغفار مكاوي إلى الشعر الحديث والفنون الحديثة عامة. إن هذا الشعر الحديث والمعاصر - فيما يرى - لا يقل شأنا عن الفلسفة والرواية والمسرح والفنون التشكيلية في قدرته على التعبير عن روح عصرنا ومشكلاته وأزماته (إننا نجد فيه مزيجا من الغموض والسحر، إنه يبتعد عن نقل المعنى الواضح والمضمون الواحد، إن القصيدة الجديدة كيانًا يشع دلالات عديدة، ونسيجا من عناصر متوترة تتصارع فيه قوى تؤثر - إيحاءً - على طبقات من النفس لا صلة لها بالعقل).

و يوضح المؤلف أن هذه السمات الجديدة للشعر الحديث يمكن أن نسميها بكلمة نستعيرها من لغة الموسيقى وهي (النشاز) والمقصود به نوع من التوتر يميل إلى القلق والاضطراب أكثر من ميله للراحة والتجانس والتناغم.. وفي حقيقة الأمر أن هذه السمات تشكل طابع الفنون الحديثة بوجه عام. ومن أوضح ما يدل على هذا الطابع عبارة المؤلف الموسيقي «سترافنسكي» في كتابه (فن الموسيقى) حين يقول: «ما من شيء يلزمنا بالتفتيش عن المتعة في الهدوء وحده. والأمثلة تتراكم منذ أكثر من قرن من الزمان لتقديم (أسلوب) استقل فيه النشاز بنفسه تمام الاستقلال وأصبح شيئًا في ذاته..».

وهكذا يتعارض هذا المفهوم للشعر الحديث مع مفهوم الرومانتيكية للفن بأنه لغة الوجدان وتعبير عن الذات الفردية.. فالقصيدة الجديدة تنفر من اللجوء إلى الوطن الساكن المطمئن، والشاعر الحديث عقل مبدع، وصانع لغة، وفنان يجرب خياله المتسلط في صنع قصيدة متعددة الأصوات والألحان لا أثر فيها لنعومة الوجدان أورخاوة العاطفة، بل يمزق كل

ذلك بسكين العقل وبالكلمات القاسية الناشزة. ويوضح المؤلف هنا أن وحدة البناء في الشعر الحديث هي نفسها وحدة البناء في الفن الحديث بوجه عام، وهذا ما يفسر تشابه الأساليب في الشعر والتصوير والموسيقى في زمن الحداثة.

ولكن كيف تتضح في كتابنا المذكور علاقة الشعر الحديث بالحداثة؟ يبين لنا الكاتب أن الشاعر الفرنسي بودليرهو رائد هذا البناء الشامخ المسمى بالشعر الحديث (وهو ما سنجد له أثرًا على رواد شعرنا العربي الجديد..) وقد نظر هذا الشاعر إلى الحداثة نظرة مركبة متعددة الزوايا:

فهي من الناحية السلبية تدل على عالم المدن الكبيرة الذي يفيض بالعقم والقبح، عالم الأضواء الصناعية، والإعلانات، والإنسان الضائع وسط الزحام، عالم التقدم الصناعي وسيطرة المادة يومًا بعد يوم.

ومن زاوية أخرى ينتزع الشاعر من هذه الجوانب السلبية شيئًا له سحره وجاذبيته.. يرى بودلير أن الشر والبؤس والسقوط والتقدم الآلي تنطوي كلها على عناصر مثيرة يمكن للشاعر أن يفيد منها بل توجه الشعر كله وجهة جديدة.

وينبهنا د./ مكاوي أن كل من يقرأ ديوان (أزهار الشر) لبودلير سيلاحظ مقدرته على إضفاء الروح الصوفية على ركام المدن الكبيرة، وأن الشعر الأوروبي في القرن العشرين لا يزال ينشر هذه الغلالة الصوفية فوق المدن كما اكتشفها بودلير.

هناك ملامح فنية أخرى عند بودلير انتقلت إلى الشعر الحديث من أهمها ما أطلق عليه (استطيقا القبح) فلم تعد الأشياء تحتمل الفكرة القديمة عن الجمال.. إنه يبحث عما يدل على الغرابة والمفارقة، ويحاول أن يوقظ في القبح سحرًا جديدًا، والقبيح يدل على المفاجأة، وهذه تولد الهجوم غير المنتظر.

ويضاف إلى ذلك اهتمام بودلير بالمخيلة وتحليله لها - فهو يرى أن الفن النابع من الخيال الخلاق يجرد الأشياء من شيئيتها فيحيلها إلى خطوط وألوان وحركات. وعلى هذا يصف العبارة الشعرية بقوله: (أنها مجموعة من الأصوات والحركات الخالصة يمكن أن تكون خطًا أفقيًا أو صاعدًا أو هابطًا، كما يمكن أن تكون خطًا حلزونيًا أو متعرجًا تتلامس حوافه..).

نحن الآن أمام مفهوم جديد للشعر - جمال يتسم بالنشاز، تنحية للقلب من مكانه القديم في الشعر، غموض ونزوع إلى الأسرار، الطاقة السحرية في اللغة، إطلاق الخيال بغير حدود.. تلك هي بعض الملامح التي اكتشفها بودلير في وجه الشعر الحديث.

obeikandi.com

وسار على الطريق الشاعران رامبو ومالارميه، كما ظل هذا الأسلوب الشعري مسيطرا على الحياة الشعرية في القرن العشرين.

وتكشف هذه الملامح الجديدة كيف كانت علاقة الشاعر بالحداثة.. فالغموض والخيال الجامح والانطلاق إلى ما هوغير مألوف وخلق لغة جديدة لم يعهدها متلق الشعر من قبل، كل هذا لم يكن عبثا أو لعبا فنيا محضا، بل في حقيقة الأمر كان نوعا من رد فعل الشعراء المحدثين تجاه الوجه المزعج للمدنية والتحديث والعالم الذي تتحكم فيه الآلات وتحكمه الصراعات والحروب.. لقد حاول هؤلاء الشعراء المحافظة على حريتهم في مواجهة هذا العالم بخلق لغة خاصة بهم والحفاظ على أرواحهم نقية من تلوث هذا العصر.

ولكن من زاوية أخرى لم يفقد الشاعر الحديث صلته تمامًا بهذا العصر بل تأثر ضمن ما تأثر بطابعه العلمي.. فهو يميل إلى التجربة والمحاولة ولكن في «معمله الشعري»، كما يميل إلى الدقة في صنعته ومزج العناصر المتعددة بل والمتنافرة، فهو يحاول أن ينشئ ما سمي (بالقصيدة التركيبية) التي تمتزج فيها الصور الشعرية القديمة - كالنجوم والبحار والرياح - بصور الحضارة الآلية واصطلاحات العلماء، مثال ذلك يقول الشاعر بييرجان جون في قصيدة له: «أرى بقعة غليظة من زيت الآلة وأتفكر طويلا في دم أمي».

الفنون الحديثة وإشكالية التلقي:

بصورة عامة تعد فترة الربع الأول من القرن العشرين هي الفترة التي وصلت فيها الحداثة إلى أعلى درجات النضج.

ويعد بودلير (١٨٢١-١٨٦٧) أهم كاتب مهد للشعر الرمزي والحركة الرمزية في القرن التاسع عشر وهو - كما سبق الإشارة - رائد الشعر الحديث بأسره.

واتسم أصحاب الحركة الرمزية بإخلاصهم للمثل الأعلى الجمالي - لقد رفضوا الخطابية المباشرة والدعوات الأخلاقية البالية وتملق الجمهور.. لذا تطلب عالمهم البحث عن لغة جديدة تناسب الرؤى التي لا تدركها اللغة العادية.

وهنا يمكننا القول أن القوة بين الفنان والمتلقي بدأت في الظهور، فقد أصبح الجمهور غير قادر على التفاعل مع لغة الشعر الحديث، وظهرت تلك المشكلة أيضًا في الفنون الأخرى كالتصوير الحديث والموسيقى الحديثة.

وإذا تلمسنا جوهر الفنون الحديثة الذي أدى إلى اغتراب الجمهور المتلقي عنها سنجد أن السمة الرئيسية لتلك الفنون هي رفضها للمحاكاة بوسائل فنية مختلفة محاولة اقتحام آفاق تعبيرية جديدة، وربما خلق واقع جديد.

وبدلًا من المحاكاة أتت فنون الحداثة بفكرة الفن باعتباره نشاطًا ذاتيًا مستقلا (فلم يعد الفن في خدمة المجالات الأخرى: كالدين أو الوطن أو الدعاية الأخلاقية أو السياسية... إلخ).

وأدى ذلك إلى عدم قدرة الجمهور المتلقي على إدراك كل هذه والشعور بغموض الأعمال الفنية الحداثية، وأصبحت مشكلة الغموض من أهم إشكاليات التلقي لفنون الحداثة (ضمن مشكلات أخرى لا مجال هنا لعرضها).

وفي محاولة الباحثة لتتبع تلك الإشكاليت في واقعنا العربي يبرز السؤال التالي: كيف يمكن أن يفيد المبدع العربي من تعرفه على إشكالية فنون الحداثة في علاقتها بالمتلقي؟

بداية، يمكن القول أن الفنون العربية كالشعر والرواية والفنون التشكيلية والمسرح والسينما قد تأثرت بفنون الحداثة الغربية.. فمن الطبيعي أن تنشأ في العلاقة بين مبدعيها ومتلقيها بعض إشكاليات في التلقي مشابهة لإشكاليات التلقي في المجتمع الغربي وأهمها شعور المتلقي بغموض فنون الحداثة كما سبق القول.

وعلى هذا أرى أن أي محاولة الآن لخلق التواصل بين الفنان الحداثي والمتلقي لابد أن تتضمن أولا الفهم لتركيبة الفنون الحداثية وغموضها، والاعتراف بأن الفن الجاد في عصرنا الحالي – كما رأى بعض المفكرين الجماليين – لا يمكن أن يكون إلا معقدا (أي مركب العناصر ومتعدد الدلالات). ولا يبقى من حل لخلق التواصل المنشود سوى بتغيير الذائقة نفسها..

وبطبيعة الحال لابد من الاعتراف بالصعوبة البالغة لتغيير الذوق السائد، وإن ذلك يعني قيام كل الأجهزة التعليمية والثقافية والإعلامية بدورها المفترض في التربية الجمالية للمتلقي وتشكيل ذوقه وبناء خبرته الفنية ليصبح قادرًا على استقبال الفنون المتطورة.

غير أن ذلك الوضع الأمثل الذي نطمح إليه لا يمكن الوصول له إلا بتحديث المجتمع نفسه والارتقاء بالعوامل الاجتماعية والثقافية التي تحكم آليات التلقي.

وهكذا فإن الوعي بالحداثة في الأدب والفن وأهمية خلق التواصل بين الفنان والمتلقي ينقلنا في بلادنا إلى ضرورة تحديث الفكر وتحديث المجتمع ذاته.. وإزاء ذلك تواجهنا عقبات اقتصادية وسياسية وفكرية ولكن تبرز بينها الآن عقبة كبرى - علينا أن نواجهها - وتتمثل في أصحاب التيارات الرجعية والمحافظة التي بدأت في الانتشار بقوة وهي تسعى إلى وأد التفكير الحر والطاقة الإبداعية لدى الإنسان باسم الدين أو على الأصح باسم تفسيرهم للدين..

وفي حقيقة الأمر أننا نجد في آيات القرآن الكريم تمجيدًا لقيمة الفكر وقيمة العمل ومن المؤكد أن ذلك يتضمن تمجيدا لقيمة الإبداع الذي يصاحب كل فكر حقيقي وكل عمل يستهدف التطوير والابتكار.

إبداع الشعر - إبداع الحداثة:

وفي ختام كتابه ثورة الشعر الحديث نجد د./ مكاوي يرفض تقليد شعرائنا للشعر الأوروبي تقليدًا أعمى، ومن ثم فهو يدعوهم إلى إبداع شعرهم وإبداع حداثتهم.. ويحث الشاعر على أن يضع تراثه بين عينيه ويحاول في نفس الوقت أن يتجاوزه - إبداعيًا - إلى شعر يعكس الحاضر ويبشر بالمستقبل. كما يحثه أن يتعلم كيف يواجه عالم القلق الحديث بمزيد من جسارة اللغة وشجاعة الذات التي تصر على أن تكون وتتحقق - أو تموت.

ومن زاوية أخرى يوجه كلمة إلى القارئ ويدعوه إلى التفرقة بين الذين يجددون بإدعاء وافتعال ليقال عليهم (مجددون) وبين الذين يجددون لأنهم مبدعون حقيقيون مدفوعون بالضرورة الإبداعية.

في النهاية لا يمكن القول إلا أن المفكر والناقد د./ عبدالغفار مكاوي، الذي لم تفارقه أبدًا روح الشاعر، قد أضاف للشعراء والنقاد وعيا بالحداثة الفنية والشعرية تركت أثرًا كبيرًا على إنتاجهم الأدبي والنقدي وقد صرح كثير منهم - منذ صدور الكتاب - بمدى تأثير (ثورة الشعر الحديث) على إبداعهم بل وعلى أذهانهم ومدى أفادتهم من ترجمة قصائد شعراء الحداثة الأوروبية إلى العربية، ويضاف إلى هؤلاء جمهور القراء الذين كانوا ومازالوا بحاجة إلى الإطلاع والتعرف على مفهوم الحداثة وتجربة المجتمعات التي استطاعت الخروج من عصور الظلام والتخلف وخاضت تجربة الحداثة وقطفت ثمارها الاجتماعية والأدبية والفنية.